

## الموضوع الفلسطيني في القصة السورية

توطئة :

ولا بأس في التذكير بأن ادب النكبة يتناول هنا من زاوية الادب العربي في سورية ، وبالطبع هناك الزاوية الأخرى الأهم وهي زاوية التيار الفلسطيني في الادب العربي الحديث التي لا شأن لهذا البحث بها والتي يمكن للظاهرة المشار إليها أن تأخذ من خلالها الاعتبار الذي تستحق في مجال غير هذا المجال .

وهناك صعوبة أخرى لا بد من أن تضاف الى الصعوبات التي سبق ذكرها ، وهي ان معظم الكتاب السوريين تطرقوا الى الموضوع الفلسطيني بشكل او بآخر وهم احيانا يعالجون هذا الموضوع معالجة رئيسية و احيانا يرون به مورا سريما من خلال موضوعات أخرى . وهكذا لا يكاد يخلو إنتاج اي قاص عربي سوري في هذه المرحلة من الإشارة الى مأساة فلسطين انطلاقا من الالتزام القومي الذي يفر ادب القطر . ويقدر ما يتجهج الباحث هنا لوفرة الاشارات التي لهذا الموضوع من جهة فانه ، من جهة أخرى ، يواجه صعوبة حصر الموضوع وتحديد اتجاهاته والتوصل الى تصنيف للظواهر المشتركة ، ومن هنا كان البحث الحالي انتقائيا لا استقصائيا .

### قبل النكبة

وهكذا في ضوء الاحترافات السابقة يمكن للمرء ان يشير بادية ذي بدء الى ان القصة العربية في سورية كانت إضافة الى التحسس بالقضية الفلسطينية والتفاعل معها كما كشفت عن حماسة واندفاع شديدتين باتجاه التصني للعدو ومنذ ان قويت بوادر المشكلة الفلسطينية اخذ الكتاب العرب السوريون يكتبون عن فلسطين . وكان الدكتور شكيب الجابري من اوائل الذين عالجوا هذا الموضوع في اطار من الحماسة القومية والدينية .

وفي روايته ( قوس قزح ) التي كتبت قبل الحرب العالمية الاولى (٢) ونشرت في دمشق عام ١٩٤٦ نجد شهيدا تاريخيا يستحق ان يسجل كمثال للشعور العربي السوري المبكر بالخطر الصهيوني وبالسؤولية في مواجهة هذا الخطر . ويحمل المشهد عنوان « صهيوني يتكلم » (٤) ، ووصف عنف الدعوة الصهيونية في نهاية العشرينات ومستهل الثلاثينات في أوروبا ، ويبدأ المشهد على النحو التالي :

(١) وقف جابوتنسكي ، كبير خطباء الصهيونية الحديثة ، في قاعة من قاعات برلين العامة يعرض القضية الصهيونية - والصهيونية - اذ ذاك في الارجح من دعوتها - ويدافع عما لفته المتطرفة من آراء واهداف . وكلما سنحت له الفرصة رمى العرب خصوم الصهيونية

يؤلف ادب النكبة تيارا بارزا في الادب العربي الحديث، والاسهام السوري فيه يصعب أن يدرس على حدة . واللوحه التي يقدمها هذا البحث عن الموضوع الفلسطيني في القصة السورية بين النكبتين ( ١٩٤٨ - ١٩٦٧ ) يقصد بها ان تساعد على رسم الخريطة العامة للموضوع الفلسطيني في القصة العربية وربما في الادب العربي الحديث . ويزيد الامر صعوبة ان كثيرا من الاعمال القصصية التي تعتبر اشد التصاقا بموضوع النكبة الفلسطينية كتبها ادباء فلسطينيون اضطرتهم طبيعة ظروف الشتات أن ينتقلوا بين اقطار عربية مختلفة مما يدفع المرء الى التردد في اعتبار انتاجهم جزءا من الانتاج المحلي لاي قطر عربي . وفي حالة الادباء الفلسطينيين الذين بدأوا نشاطهم الادبي في سورية تبدو المسألة لأثمة لتلظر . ففسان كنفاني مثلا لم يلبث بعد بدء نشاطه الادبي ان غادر سورية الى الكويت حيث بدأ نجه يلمع هناك ، ثم انتقل بعد ذلك الى لبنان حيث تفجرت طاقاته الفنية ولا سيما في مجال القصة ذات الموضوع الفلسطيني (١) . ويوسف الخطيب الذي اسهم في القصة الفلسطينية في مجموعته ( عناصر هدامة ) أنهى دراسته الثانوية في فلسطين ثم انتقل الى سورية ثم اقام زمنا في هولندا وفي لبنان وفي اقطار عربية أخرى ثم عاد الى سورية في اوائل الستينات . ونواف ابو الهيجا بدأ نشاطه في العراق ثم اقام بضع سنوات في سورية ثم غادرها الى الكويت . ويوسف جاد الحق نشر معظم انتاجه في مصر وظل وجوده في الساحة الادبية السورية محدودا ، على الرغم من ان سورية صارت موطنه الثاني بعد النكبة . ان هذه الامثلة التي تكاد تؤلف القاعدة العامة تدفع الباحث الى اعتبار انتاج الكتاب الفلسطيني في هذه المرحلة ظاهرة خاصة لا تدخل في الاستنتاجات العامة الا حين تتوافر شروط التجانس مع ادب المرحلة (٢) .

(١) استشهد المرحوم فسان كنفاني في بيروت على اثر انفجار قنبلة في سيارته بتدبير من عملاء المخابرات الصهيونية والاستعمارية سنة ١٩٧٢ .

(٢) هذا هو المقياس الذي اقترحه في المشكلة المنهجية المتعلقة باسهام الادباء الفلسطينيين في الادب العربي الحديث ويتوقع ان طرح هذه المشكلة بشدة مع نمو الدراسات الادبية ذات الطابع المحلي في الاقطار العربية ، ذلك ان هذا لتاسهام يخلق مشكلة منهجية ذات شقين : الاولى من زاوية الدراسة القطرية او المحلية والثانية من زاوية دراسة ادب النكبة بجملته .

(٣) وفقا لتصريحات المؤلف في اكثر من مناسبة .

(٤) قوس قزح ، ص ١٤٨ - ١٥٢ .

الالقاء ، بسهام دقيقة نافذة ، ظاهرها بريء مسالم وفي باطنها كيد عميق .. »

ويعطي الشاهد في تسجيل المغالطات التي كان يستخدمها جابوتنسكي لتلاعب بمقول ساميه من الأوروبيين وعواضهم ، وهم الجاهلون بالحقائق الاساسية للقضية وبالناويا الصهيونية السيئة التي كان يظلمها جابوتنسكي بثوب من بليغ القول وبناكيدات مستنرة على قيم السلام والاستقرار والانسانية (٥) . وفي نهاية الشاهد يشعر جابوتنسكي انه قد احكم سيطرته على نفوس الحاضرين وبلغ من قناعاتهم حدا طمأنه الى استعدادهم للاستجابة لكل ما يريد ، ويسمح لنفسه ان يلقي السؤال التالي :

« والان ، أيها السادة ، ماذا عمل رجالنا من فلسطين ؟ هل جعلوا منها جنة ام جحيماً ؟ » .

ولنترك للجابري الان ان يقص ما حدث بعد ذلك ، اذ ان كلماته تحمل من الصدق والحرارة ما لا يمكن توليده في أي أسلوب وسيط :

« وما كاد يقف هنيهة ليقرأ الجواب على الوجوه حتى انبعث في الفاعة صوت حاد صائحا : بل جعلوا منها جحيماً !

التفت الناس جهة الصوت الجريء دهشين قرأوا ، وهم بين محنق ومستغرب ، شابا طويل انعامه ، اسود الهامة ، ذا عينين رحبتين ، فيهما بعض جحوظ وسذاجة ومن الايمان قدر وفير . وسكت الشاب بعد ان انصت بكلمته التي اطلقت الجمع . الا انه ظل واقفا يلقي على الناس المتحيرين من حوله نظرة اشد حيرة كأنه يسألهم : اليس فيكم من ينقض عليّ وينتقم ؟ الا أنهم ما لبثوا ان استفاقسوا من الدهشة وتقبل بعضهم منه وتكاثروا عليه ، واخذوا يجرؤونه ، وكلما امعنوا في هياجهم امعن هو في استخفافه وهزئه ، ثم قال بصوت لا تدري اهو الى السذاجة ادنى ام الى الخبث :

يا بني اسرائيل . ما بالكم وفتنتم حيال عربي فرد لا يملك عن نفسه دفعا وقفه لتثيب الحيران ؟ افانتم الذين تاهبوا لنزال قومي الاشداء ؟ .. اتقوا الله في اجسادكم اللينة فما اراها خليفة باحتمال ما تنتظرون من مجد عظيم .. » (٦)

ان الجابري لا يزدنا بكثير من التفاصيل حول الصوت العربي وحججه في حين انه يعني بنقل الحجج الصهيونية التي كان يتشدد بها جابوتنسكي ورهطه . وبالطبع يعكس هذا الموقف الروائي الموقف الواقعي في ذلك الحين . فالصهيونيون كانوا قد قطعوا شوفا طويلا في تهية الرأي العام الاوروبي لتقبل ما كانوا يتهيأون له في فلسطين من اقامة الدولة اليهودية ، في حين كان الصوت العربي معدوما تماما ، ويصور لنا الموقف الروائي ذهول الدعاة الصهيونيين وجمهرة الحاضرين من سماع اية حجة قادمة من الطرف العربي ، ذلك ان اذهان الصهيونيين والاروبيين على السواء كانت تفترض عدم وجود طرف عربي اطلاقا ، ومنذ ايام هرتزل واسرائيل زانقول من بعده قامت الدعوة الصهيونية على اساس تلهين نفسها وتطمين الاروبيين ان « فلسطين ارض بلا شعب ويجب ان تعطى لشعب بلا ارض » . ويذكر التاريخ ان ( وايزمن ) حين زار فلسطين في مطلع الثلاثينات ، اي قسي فترة انتعاش نشاط جابوتنسكي استغرب وجود مقاومة عربية فلسطينية للخطط الصهيونية . ويمكن ان يستدل الانسان من موقف البطل العربي في رواية الجابري على الامور التالية :

١ - لم يكن لدى العرب في ذلك الحين اي نوع من انواع منطوق المحاجة للرد على الادعاءات الصهيونية .

٢ - كانت الوقفة العربية فروسية وعاطفية وجريئة ، لا يتوافر فيها الحد الادنى من الاستهداف والتكتيك ، وبالمقابل كان المنطق

(٥) من المعروف ان جابوتنسكي من اكثر دعاة الصهيونية تطرفا وهو يعتبر الاب الروحي للارهاب الصهيوني .

(٦) قوس قزح ، ص ١٥١ - ١٥٢ .

الصهيوني منهجا ومبناوفاق خطة واضحة لاصحابها - وكذلك للمؤلف الذي يظهر وعيا نظريا لبطلان الحجج الصهيونية .

٣ - هناك استخفاف كبير بقوة الصهيونيين . وهم هنا يهود جبناء ضعاف لا تقوى عريكتهم اللينة على منازلة العرب الاشدء !! وان العربي ليشفق عليهم ويهزأ بهم لانه يبدو متاكدا من قوة قومسه وشدة بأسهم !! وههنا مقتل الوصف العربي في ذلك الحين روايا وواقعا .

وقد استمر اجباري خلال الحرب انعالية الثانية وبعدها في معالجة الموضوع للفلسطيني في النص القصيرة التي كتبها خلال هذه الفترة ، ويعكس هذه الفصص تجاربه الواقعية وتجارب انباء جيله في بداية الصدام مع الفزوة الصهيونية ، كما تعكس اهتمام العرب السوريين وقلقهم ازاء تطامح الصهيونية من جهة وحماسهم من جهة اخرى لخوض المعركة المتوقعة في فلسطين ، وان كانت توقعاتهم تكشف عن سوء تقدير تقوة الصهيونيين ومبالغة في تقدير قوة العرب كما رأينا في ( قوس قزح ) . ويمكن ان نشير هنا بوجه خاص الى قصة الجابري التي تحمل عنوان ( سنقاتلهم في فلسطين ) ، التي نشرت قبيل نكبة فلسطين . وهي تدل على ان موقف الرأي العام العربي كان قائما على الاستهانة بقوة العدو الصهيوني والاعتداد ( الصوفي ) بفوه العربي ، حيث كان الناس يوازنون بين استعدادات الصهيونيين المدروسة وبين العرب الذين لم يعدوا للواقعة المقبلة عدتها ومع ذلك لا يصدقون ان ( اليهود ) يمكن ان يهزموا ( العرب ) ، بل كانوا على شبه يقين بان القوة العربية انخترتة خلال العصور سوف تنتفض فجأة لتحمس المعركة بموقف اصيل خارق . ان قصه ( سنقاتلهم في فلسطين ) امثل هذا الاعتقاد تماما ، وتنبأ به وتحاول ان تمنحه ( فابلية تصديق Credibility ) خاصة (٧) ان البطل العربي شاب وديع رقيق يجد نفسه في احد المحافل في اوربا ( برلين ) وجها لوجه امام الصهيوني ( شير ) ذي البنية القوية والشبه المنفطرة . ولا يطيق العربي صبورا على مزاعم الصهيوني فيتحداه ويخيل للناس ان العربي هو الخاسر لانهم يحكمون على ( الظاهر ) ، ولكن العربي يستأسد وتنفجر فيه قوته العربية الكامنة فيدحسر الصهيوني وينتصب ظافرا ويقول لليهود : هكذا سنقاتلهم في فلسطين . وبالطبع لا ينتظر المرء الشيء الكثير من القصة العربية في سورية خلال مرحلة ما قبل النكبة ، وحسبها - على أي حال - انها اظهرت تحسسا مبكرا بالخطر الصهيوني وفتت الانظار الى ضرورة المبادرة بالتصدي له . ولم يكن من السهل على كتاب القصة الاوائل معالجة الموضوعات القومية في هذا النوع الادبي ، فتلك تجربة جديدة لم تكن تستند الى اية قاعدة مروثة ، ومن هنا تعتبر معالجة الجابري للموضوع الفلسطيني تجربة رائدة في تاريخ القصة العربية في سورية . ويزيد من تقديرنا لهذه التجربة ان القصة نفسها كانت تخوض في ذلك الحين معركة صعبة للاعلان عن مولدها واحتلال مكانتها بوصفها فنا ادبيا لا تقا . وحين أتبع لهذا الفن الادبي - بعد النكبة مباشرة (٨) - ان

الانتباه على الصفحة ٧٣ -

(٧) ذكر لي الجابري مجددا ان هذه القصة وبعض قصصه المتعلقة بفلسطين تحمل تجاربه الخاصة ، وقد اضاع عددا منها ولكنه جاد في البحث عنها .

(٨) - يقوم البحث الحالي على تصور معين لتطور القصة العربية في سورية حتى سنة ١٩٦٧ من خلال الراحل التالية : الاولى ١٩٢٠ - ١٩٤٩ ، الثانية ١٩٥٠ - ١٩٥٨ ، الثالثة ١٩٥٩ - ١٩٦٧ ، ومع ان هذا التصور قد لا يكون شديد الصلة بصلب البحث الحالي فان الاشارة اليه قد لا تخلو من فائدة في الربط بين التطور العام للقصة السورية وتطور معالجتها للموضوع الفلسطيني . للتفصيل يمكن مراجعة : الخليب ، د. حسام : سبل المؤثرات الاجنبية واشكالها في القصة السورية ، معهد البحوث والدراسات العربية ، القاهرة ، ١٩٧٢ .

## الموضوع الفلسطيني في القصة السورية

تابع المنشور على الصفحة ١٦

يستوي على قدميه توجه على الفور نحو الموضوع الفلسطيني واولاه  
فضلا من الاهتمام فير يسير كما سوف نرى بعد قليل .

### النكبة وما بعدها

انتهت احداث عام ١٩٤٨ بنهاية مساوية صدمت العقل العربي  
والجموع العربي في الصميم وخلفت في النفس العربية جرحا لم يتح  
له عمق الصدمة وتتابع الحوادث ان يتمثل حتى بعد مضي حوالي ثلاثة  
عقود من السنين . ومن هنا كان المرء يتوقع ان يكون لهذا الجرح العميق  
انعكاسات صارخة في الادب العربي ولا سيما في ادب قطر عربي مثل  
سورية كان دائما في مواجهة الصدام وظلت عاطفته القومية دائما في  
الاج . وههنا ، وبصرف النظر عن تفاوت القيمة الفكرية والفنية ،  
اهل عشرات الابداء العرب السوريين على رثاء فلسطين الزائلة ومعالجة  
النواحي المختلفة للقضية الفلسطينية ، ويظهر جليا من استعراض  
النتاج الادبي في سورية بين نكبة عام ١٩٤٨ ونكسة عام ١٩٦٧ ان  
النوعين الادبيين ان الذين حملوا انصب الكبير هما الشعر والقصة  
القصيرة . ويبدو هذا الامر طبيعيا وغير مخالف لما هو متوقع .  
فالشعر كان ، وما زال ، ديوان العرب وهو الملاذ الذي يلوذ به الناس  
عند الملمات وعند الافراح الكبرى كذلك . اما القصة القصيرة فقد كان  
من الطبيعي ان يقع اختيار الكتاب عليها باعتبارها نوعا انبيا مطوعا  
فانرا على نقل انفعالهم السريعة واشجانهم المتلاحقة التي كانت تثيرها  
تطورات المساة الفلسطينية . حتى لكان كتاب النشر ارادوا لها ان  
تعمل من التوتر والشجن ورهافة الاحساس ما حمله زملاؤهم للشعر .  
وقد استطاع هؤلاء الكتاب بالدرجة الاولى ان يحملوا قصصهم مختلف  
الجوانب العاطفية التي نجت عن التائر بالمساة ، مضافا الى ذلك  
بطبيعة الحال بعض النواحي السياسية ، فمثلا سجل فكري الممر  
المشاهد المؤثرة للخروج الفلسطيني وذلك في مجموعته الوحيدة .  
« يحدونك من القلب » (٩) وصور بديع حقي في قصصه المتعاقبة منذ  
الخمسينات ثنائية الحياة الفلسطينية بعد النكبة : الحنين الى الارض ،  
والنشيت ، كما يتضح جليا في مجموعته « التراب الحزين » (١٠) ،  
وكتب الدكتور عبد السلام العجيلي عن تجربته السياسية في حرب  
عام ١٩٤٨ التي شارك فيها بعض الوقت ، وظهرت بعض قصصه  
الفلسطينية في مجموعة « الحب والنفس » (١١) ، واديب النحوي  
شارك بعاطفته المضطربة وباتزامه القومي في رصد بعض جوانب النكبة  
وذلك منذ ان اصدر مجموعته القصصية الاولى « من دم القلب » ،  
عام ١٩٤٩ . وكذلك كان لسائر كتاب القصة السورية اسهام يكثر او  
يقل ، يبدع او يحط على السفوح ، في معالجة الموضوع الفلسطيني  
في القصة ، ولا بد ان يذكر مع هؤلاء : فارس زرزور ، ياسين رفاعية ،  
شوقي بغدادي ، خليل هنداي ، فاضل السباعي ، غادة السمان ،  
وداد سكايني ، ممن لهم باع طويل في كتابة القصة القصيرة ، وكذلك  
يمكن ذكر كتاب آخرين ممن لم يظهروا استمرارية في كتابة القصة ،  
وذلك مثل نزار المؤيد المظم ، عبد الهادي البكار ، برهان شريح ،  
منير الشعار ، الخ ...

والملاحظ ان الجيل الجديد اخذ يفني الموضوع الفلسطيني ،  
منذ اواخر الخمسينات ، بما اظهره من ميل الى الايجابية والتحليل  
السياسي والتساؤل والاحتجاج والتمهق في لب المسألة ، محالولا

(٩) نشرت عام ١٩٦٢ ولكن القصص تعود الى فترة اسبق بكثير .

(١٠) نشرت عام ١٩٦٠ ، وتعود معظم قصصها الى اواسط  
الخمسينات .

(١١) نشرت عام ١٩٥٩ ، ويعود معظم قصصها الى اواسط الخمسينات

بذلك ان يعطي النكبة معنى مختلفا عما كان سائدا آنذاك . ويمكن اعتبار  
انتاج مطاع صندي مثلا لهذا الاتجاه ، لا في القصة القصيرة فحسب  
« اشباح ابطال (١٢) ، بل في الرواية المطولة ايضا «جيل القدر» (١٣) .  
كما تلفت ننظر في هذا الصدد بعض بواكير انتاج هاني الراهب ،  
الذي ينتمي الى الجيل الاحداث سنا .

وبوجه عام يمكن تلمس ملامح خط تطوري مستمر للموضوع  
الفلسطيني في القصة السورية ، ففي البدء كان الكتاب مشغولين بلب  
النكبة أي بالهزيمة نفسها وبما ترتب عليها من معاناة الشعب العربي  
الفلسطيني وآلامه وتشتته وتشرده ، وكان ضيقا أن يفرض التركيز  
على هذه الناحية جوا من التشاؤم والحزن والتدب ، ولكن هذا الموقف  
العاطفي الرثائي المحض سرعان ما قاد الكتاب الى تساؤلات عقلية  
اختلفت بالموقف العاطفي وتمحضت عن أجوبة انطباعية تناولت اطار  
المساة بالاضافة الى لبها وفهلت مؤشرات غير متبلورة باتجاه الموقف  
السياسي العربي الرسمي . ولم يلبث ان انضم بالتنريج الى موكب  
كتاب القصة شباب ناشئون تفقدوا من التربية السياسية للحركات  
الثورية التي فجرتها النكبة اصلا واستفادوا من التطور الذي بلغه  
الوعي السياسي في الوطن العربي ولا سيما في القطر العربي السوري ،  
واخذوا يترقون الموضوع الفلسطيني وقد تحوالت عندهم العاطفة الى  
نفقة على مسيبي النكبة ، والاشفاق الى تحريض على الثورة والتمرد ،  
والغز الى كشف وفضح وتوعية . على أنه في جميع الحالات وفي  
مختلف المراحل اظهر الكتاب العرب السوريون ميلا شديدا الى الإشادة  
ببطولات المناضلين ، سواء اكانوا من ابناء فلسطين ام من مقاتلي  
الجيش العربي السوري الذي استمرت اشتباكاتهم مع العدو متصلة  
حينما متقطعة حينما آخر ، كما اتفقوا جميعا على ابراز القيم الخلقية  
العربية في القتال مقابل التنديد بنذالة العدو ووحشيته وتدني قيمه ،  
ويعتبر انتاج فارس زرزور اقوى معبر عن هذا الاتجاه .

### لب المساة عند كاتيين رائدين

١ - فكري الممر وحديث القلب للقلب :

وعلى أي حال تظل مجموعة ( يحدونك من القلب ) المجموعة  
الوحيدة التي تتركز كليا حول الموضوع الفلسطيني حتى سنة ١٩٦٧  
على الاقل ، وتمثل فيها السمات الأساسية للموقف الفكري الفني  
الذي اتخذه الجيل القديم من موضوع النكبة الفلسطينية خلال عقد  
من السنين بعد النكبة ( حتى نهاية الخمسينات او ما يمكن تسميته  
المرحلة الثانية من تطور القصة السورية ) . وتدور قصص المجموعة  
حول ( الخروج الفلسطيني ) ، ومن خلال هذا الموضوع تقدم لنا  
القصص جوانب مختلفة من النكبة اهمها تشرذم الفلسطينيين ومعاناتهم ،  
وكفاحهم في سبيل الحياة ، ومغامرات العودة والخروج ، وبطولات  
الكفاح ضد العدو الصهيوني ، واخيرا وحشية اليهود وتكليفهم بالمدنيين  
الارباء . وتجري الاحداث في مدن فلسطينية مختلفة مثل اللد والرملة  
وعكا وحيفا وصفد . ويترك الكتاب احيانا زوايا خاصة غير منظورة  
من النكبة مثل معاناة الطلبة الفلسطينيين في أوروبا عندما حلت  
النكبة ، اذ يعالج الكاتب في قصته « كنت طالبا في جامعة لندن »  
مشكلة طالب فلسطيني في لندن انقطعت عنه اخبار اهله أثناء حوادث  
عام ١٩٤٨ كما انقطعت عنه الموارد المالية فوقع فريسة الغربة والحسرة  
واللوعة من جهة وفريسة الفاقة والجوع الحقيقي من جهة اخرى . وفي  
هيكل القصة الذي يقدمه الكاتب امكانات غنية نفسية وسياسية وفنية ،  
ولكن الكاتب لا يوفق في توظيف هذه الامكانات وتبقى قصته في حدود  
المادة الخام غير المصنعة فنيا .

والحق ان الكاتب يلتفت الى أكثر من زاوية خاصة من زوايا  
الموضوع الفلسطيني يمر بها مر الكرام دون أن يقدر قيمتها الفنية ،  
وهذه الظاهرة تكاد تكون مشتركة في ادب الرواد . وتبدو القصص

( ١٢ ) بيروت ، ١٩٥٩ .

( ١٣ ) بيروت ، ١٩٦٠ .

النكبة حتى نهاية الخمسينات .

ومن الناحية الفنية يمكن القول ان الحد الأدنى من الصياغة الفنية لم يتوافر للقصص ، وأتت ( يحدوثونك من القلب ) مجموعة من الحكايات التي لم تشذ بها يد الفن ، وهي نوع من تاريخ الأفراد موضوع في قالب قصة ، حرم نفسه من فنية القصة ومن دقة التاريخ ، ولكنه مع ذلك ظل محتفظاً بحد أدنى من الإثارة والنشويق والإقناع النفسي بفضل طريقة السرد الصغوية الصادقة . وقد حرص الكاتب على الأمانة في الرواية الى أبعد حد وكان يذكر الاسماء والأماكن والتواريخ أحيانا . وساعده على إعطاء انطباع الصغوية والصدق لفنه الجميلة العبارة التي كانت ترقى أحيانا حتى تقترب من مرونة الأسلوب المناسب للسرد القصصي ، ولكن تربية الكاتب الأسلوبية التقليدية كانت تظفي عليه في أحيان أخرى فيأتي أسلوبه مثقلا بالمعاني الجاهزة وبعض المفردات الغريبة ، وأحيانا تفتقر الأسلوب ملاحظات استطرادية باردة سخيفة لا تعلم أن تكون حشواً أريد به عرض ثقافة الكاتب اللغوية ، ويفطن الكاتب الى هذا الأمر فيحاول أن ينفي عن نفسه التهمة وذلك بربط الاستطراد بهدفه الظاهري في القصة ، تماما مثلما كان يفعل المثني في تصنعه للثقافات الأجنبية واللغوية . ففي قصة ( عرس بطل ) مثلا يدور حوار بين ( فهد ) بطل القصة وبين استاذ القرية ، ويستشهد الاستاذ ببيت ابن دريد :

الناس الف منهم كواحد  
وواحد كالآلاف أن امر عنى  
ويستمر الحوار على هذا النحو :  
« قال فهد : إن هذا البيت ؟  
قال الاستاذ : لابن دريد .  
قال فهد : ومن هو ابن دريد ؟

الاستاذ : هو صاحب كتاب الجماهرة ، وصاحب المقصورة المشهورة .  
فهد : ما الأم الاستعمار . سلط علينا الصهاينة يأخذون دارنا ويحاربوننا في بلدنا ، وحجبنا عن العلم وعن ادبنا وتاريخنا . ص ٥٨  
وبوجه عام كان نفس الكاتب تقليديا ، وتظهر مفاخرته مع فن القصة القصيرة العناء الذي كان يلاقيه كتاب الجيل القديم في عملية تطوع لقتهم واساليب تبصيرهم للتلاؤم مع الفنون الحديثة . وقد كان عند قدرتي العمر من رهاقة الحس وصدق العاطفة ونبل المقصد ما كفل لقصصه ان تظل شاهدا على مرحلة مهمة من مراحل وعي فن القصة العربي لوضع من أخطر الموضوعات التي عالجها خلال نصف القرن الماضي .

٢ - بديع حقي وثنائية الحنين والتشرد :

لم يصغ احد من نكبة الفلسطينيين بيانا بلغوا صدق واندى وأكثر صميمية وواقع في النفس واشد تأثيرا من بيان الدكتور بديع حقي في القصص القصيرة المعدودة التي نشرها في الخمسينات (١٤) . وان المرء - مهما حاول ان يسلم نفسه ضد تأثير الاسلوبية - لا يستطيع ان يكون في موقف قوة ازاء السحر الحلال الذي تحمله عبارات بديع حقي الملهمة المضخمة بدماء الضحايا ودموع المنكودين . ومهما يكن من امر تفير الذوق الفني او تطور الوعي السياسي فان المرء يشعر أحيانا ان هذه التغيرات لا تنال من الطاقة التأثيرية لكلمات بديع حقي ، على الرغم من ان هذه الكلمات كثيرا ما تنحو منحى ميلودراميا وكثيرا ما تؤثر الجلجلة والوعويل على النغمة الشجية والأنة العبيسة . وليس السر - كما يخيل لآخرين - يكمن في شيء واحد هو أن بديعا وضع يده على الجرح ، وبالضبط على قلبه وممكنه حيث تتفجر العروق دما فوارا ومعنى إنسانيا يتجاوز لغات العالم وكل ما أوتيته من بيان .

( ١٤ ) انظر بعض هذه القصص في مجموعته ( التراب الحزين ) دمشق ، ط ٢ ، ١٩٦١ .

خالية من اية هدية سياسية او أخلاقية متمسكة ، وحتى من الدرس العام الوطني والإنساني الذي يمكن أن يكون المؤلف قد رمى اليه لا يستمر على مستوى واحد في جميع القصص بل يضطرب أحيانا ويتناقض وقد يحول توجيهها معاكسا للموقف الوطني المنتظر . ويرجع ذلك بالطبع الى الفقر الشديد في الرؤية السياسية والاكثاء المسرف على الجانب العاطفي من النكبة . وفي قصة « وصلت الى دمشق » مثلا يعاني أفراد الأسرة مرارة الخروج والتشتت ، وتنتهي القصة بمشهد الأسرة وقد التام شملها في بيت شامي عتيق في أعلى قاسيون واطمان بها المقام حتى ان الزوجة تقول :

( يا لها سعادة لو تدوم ) ( ص ١٠٢ )

مع ان الظرف ظرف نكبة وتشرد . وبالطبع كان في مقدور الكاتب بشيء من العناية الفنية أن يستغل هذا الموقف للإيحاء بالمفارقة المرة في موقف أسرة لا جئة تعتبر اللجوء ( سعادة لو تدوم ) ، ولكن الكاتب قدم المادة الخام دون أي صقل .

بل هنالك ما هو أخطر من ذلك . في بعض القصص تأكيد على أن ( الخروج ) هو الحل السليم والنهائية المنشودة ، كأنما كان الكاتب مشغولا بالجانب الإنساني العاطفي الى درجة أتسته الدرس الوطني . وتقدم لنا بعض القصص شبانا فلسطينيين تطيح بهم أحداث النكبة الى خارج المنطقة المحتلة ولكنهم ينجحون بعد مئة الأوهال في اجتياز الحدود وينضمون الى أهلهم في فلسطين . الا أن صعوبات الحياة في الأرض المحتلة تصدهم فينظرون على أنفسهم يائسين مستسلمين ، ثم يقررون الهجرة الى البلاد العربية . هكذا تنتهي إحدى القصص التي تدور أحداثها في حيفا :

( وبعد ثلاثة أيام ، كانت الأسرة على سفرة الطيور في الصباح ، وكانت الإذاعة تديع ، وكانوا يسمعون لها صامتين ... فالذا بين أخبارها رسالة من أحمد تقول :

انا الان في دمشق ، صحتي جيدة ، أخبروني عن صحتكم .  
وما انتهى الخبر حتى ترامى الابوان على حسن يقبلانه ، ويقولان بصوت واحد :

- الان تمت الفرحة يا حسن .

حسن : نعم . وستتلقينا جميعا في دمشق . )

وبالطبع ، قد يكون هذا الكلام صحيحا من زاوية تجربة أسرة معينة علم بها الكاتب . ولكن أين دور الأديب في التصفية الفكرية والفنية ؟ ان الكاتب يؤكد في مقدمة المجموعة أنه سمع القصص من أفواه أبطالها وبذل جهدا فائقا ليوائم بين الفن والحقيقة ، وكان بفضل التصحية بالفن في سبيل الحقيقة وأمانة الرواية . ولكن مشكلة التصحية بالتصحية الفنية انها تصبح تصحية بكل شيء .

لقد فهم الكاتب في جميع القصص أن دور ( المقدد ) الذي كان على الاقطار العربية أن تقوم به تجاه فلسطين هو دور ( احتضان ) اللاجئين الفلسطينيين وتسهيل سبل الخروج لهم . وقد قدم لنا الاقطار الهجرة على أنها سدرة المنتهى وجنات عدن . وكان التركيز واضحا على سوريا بوصفها ملاذ اللاجئين وأهم الحنون ، وفي معظم القصص يتمدب الابطال ويماتون الامرين ولكنهم حين يصلون الى الأرض السورية يجدون العناية والعمل والترحيب ويطهش بهم المقام . ولعله من خلال هذه الزاوية انتقد مثلا معاملة اللبنانيين للاجئين الفلسطينيين في قصة ( الرجوع الى عكا ) مثلا .

وبوجه عام تحمل مجموعة ( يحدوثونك من القلب ) نفسا إنسانيا ووطنيا نبیلا ، وتنتج في لفت النظر الى زوايا حساسة من النكبة الفلسطينية ، كما تعتمد التركيز على جوانب المعاناة الفلسطينية ، وربما تبلغ أوجها في قصة ( دير ياسين ) التي تصف فظائع اليهود وغرهم بواقعية صارخة . ولكن هذه القصص بوجه عام تفتقر الى رؤية سياسية سليمة ، ولعلها بذلك تعكس الموقف الشعبي العام من

تحدث بديع من ثنائية الحياة الفلسطينية بعد النكبة : العنين الى شجر البرتقال والاكثواء بعذاب التشرد . وهل هناك شيء سوى هذه الثنائية في الصفحة التي تلت فصل النكبة في مجلد المعاناة الفلسطينية المعاصرة ؟ في ( التراب الحزين ) يعيش ( حسين ) الفلسطيني الصغير مع أسرته في بلدته ( قلقيلية ) ( ١٥ ) ، ولكن في حي اللجوء وفي مسكن اللؤلؤ والفقر . منزل الأسرة على بعد خطوات منها وبرتقالها كذلك وقلوب افرادها كذلك . وليس تنفعا قريبا النار ، بل يزيدنا تسريح النظر في الملك انضائع بؤسا وكندا ويبقي المأساة حية حارة ومصعبة ممسية . وكما يفعل كل أبناء قلقيلية - اللجوء ، ابرم في نفسه امرا وتسلل في الظلام الى بيارات ابيه وجده ، لا ليضع الغاما ولا ليبيد ابرياء بل ليقتطف برتقالات معدودات يأمل أن يصنع منها عصيرا يشفي اخته المريضة . ويقتطف البرتقال ويملا صدره به وتترادى له صور « كأس المصير تهتر في يد اخته ، وهي تنهل منها » . وتتهلل ابتسامة هنيئة على شفثيه . ولكن :

« انه لا يدري كيف يفارق هذه الشجرة ، شجرته الحبيبة ، واغصانها لا تزال مثقلة بالبرتقال ، واجتاحت الحسرة قلبه ، وهو يرى نفسه مضطرا الى الاكتفاء بما قطف » .

واخيرا ينتزع نفسه من تردده ، ولكن بعد فوات الاوان . ان عدو انحية يقف له بالمرصاد ، ويركض وتركض وراءه رصاصات الشر ، وتومض امامه صورة اخته المريضة وامه العاتية ، ويسقط دون حراك ، وتتناثر البرتقالات وتتحرك ، ولكن الى حين .

« كانت اشعة الشمس ، عند الصباح ، اول من قبل وجهه ، وهو ملقى على الأرض ، دون حياه . والى جانبه جثث برتقالات تافهة وقد تلوثت احداها بالدم ، وكانت برتقالة صريخة ، نغلت في قلبها رصاصا وسال عصيرها الشهي ، فعاتق دما نديا احمر ، ثم انساب على التراب الحزين » .

ان الناقد المتخذ هيئة العجد يستطيع ان يجد في ( التراب الحزين ) عشرات العيوب ، وقد يتساءل عن التحليل وعن المعنى السياسي وعن المفرد ، وقد يجد خرقا لمبادئ الفن القصصي في المطلع وفي النهاية وفي التائق الاسلوبية ، ولكن من يعرف ماذا يعني البرتقال عند صبي فلسطيني محروم ، وماذا يعني سلخ قلقيلية عن بسايتها بظغ من الشريط المسيج شاركت في رسمه على الخريطة يد صهيونية واخرى غير صهيونية الهيمية - ان من يعرف ذلك - ومن يستطيع ان يتخيله كذلك ، لا يمكن ان يكون امام بديع حتى سوى قارئ يغالب دمعته بالكاد .

الثانية الاولى اذن هي الحنين الى البرتقال . والثانية هي الاكثواء بعذاب الخيمة ، وكلاهما اكثواء على اي حال . والخيمة عند بديع حقي مخلوق حساس ناضق . لقد ولدت عشية المولد الرسمي للنكبة واتيح لها بعض الفراغ وبعض العزم لان تكتب مذكراتها منذ ١٦ - ٥ - ١٩٤٨ حتى ٢١ - ١ - ١٩٤٩ . وانها لتتالم كثيرا لمصير هؤلاء المعذبين اللاجئين الى ظلها غير الظليل وصدرها غير الدفء . وما الذي يمكن ان تربيته من احوالهم ؟ انها لتحار بين البكاء على مصيرهم والتوجع على حاضرهم والاشفاق على ما يعانونه من جوع ومرضى وعطش وذل وحرمان . وانها لتهم بان تشعرهم بشيء من الطمأنينة واذا بالريح تهب لتفسد عليها كل ما حاولته ، وتجعل من كل ذرة معاناة عندهم ضعفا او اكثر ، واذا تلكت الريح او نسيبت او صرورها شاغل ما ، كان رصاص

( ١٥ ) جعل خط الهدنة لعام ١٩٤٩ من قلقيلية ( برلين ) فلسطين المشطورة ، ولكن بين اهلها وغاصبها لا بين المانها والمانها . ومع ذلك ينسى الناس ، ويتحدثون - كما تحدث كاتب هذه السطور عن العاطفية والميلودراما . لقد كان القطار اليهودي يعبر من جانب نوافذ مدرسة قلقيلية وحين ينجلي دخانه كان الاطفال يجردون رؤيتهم لبرتقالهم الذي تقطفه الابدي نفسها التي قتلت اباؤهم .

اليهود جاهزا لان يقوم بدوره كجزء من مظاهر الطبيعة القاسية . وان الخيام ليحدث بعضها بعضا ويشعر بعضها مع بعض وذلك بعد ان صهرت المعاناة ما يكون عادة من جمود بين الجمادات .

هي ذى مذكرات الخيمة في ١٥ - ١ - ١٩٤٩ . اليوم ، كان يوما حزينا اسود في عمر جارتى الخيمة المعجوز ، فقد ماتت الفتاة الصغيرة فجة ، كبرعم صغير اخضر ، غدر به البرد فذوى قبل ان يتفتح .

وقالت لي الخيمة المعجوز ، وعينها تشرق بالدمع ، ان الصغيرة كانت مسلولة ، وافضت الي بان آمالها في الحياة سوف تنبت قريبا مع حبالها الواهنة .

وشق الفضاء عويل الام التكلى ، وخفت الاملثة اليها نواسيها وتشاركها في البكاء ، وتحامل فتاي الصغير ، بخطاه المتشرية المتزايلة ، وتناهى الى سمهي سعاله الياس ، وتسلل الفلق الى قلبي .

ووقف الفتى امام باب خيمة جارتى ، وكان ظله المنسكب على الارض طويلا يكاد يلامسني ، ومددت شفثي فقبلت ظله ، وعرفت انه ينسج ، فقد كان ظله يهتز ويترنج .

لن يلعب معها بعد الآن ، امامي ، لن يثرثر معها ، لن يطلق ضحكته النقية ويمحو عن كاهلي غبار العناء .

ورايته يقترب من امها ، يواسيها ، بلقته الساذجة الدافئة ، ولحنته يرامق الصغيرة اسجاعة على ارض الخيمة ، ويقول لها معانيها : - كيف تفادينا وتتركيسن ملاعبنا ونزهاتنا واحلامنا المشتركة ؟ ( ١٦ )

لقد انطق بديع حقي كلا من الخيمة والبرتقال بكلام مؤثر ، لانه بالدرجة الاولى مستقى بصدق من قلب واقع المعاناة الفلسطينية ، واستطاع ان يسهم في رسم اللوحة الاساسية للموضوع الفلسطيني ، وحاول جاهدا ان يوفر لهذه اللوحة الوانها الخارجية وهي البؤس والجوع والعوز والمرض والبرد والعري ، كما انه لم يقصر في رسم خطوطها الداخلية من ذل وحرمان وخوف وقلق من جهة ، وحنين وشوق وصبر وتشبث بالتراب من جهة اخرى . وكانت المأساة عنده عاصفة صارخة ، فملكت عليه كل حواسه ، ولم تمكنه من تجاوز الدوامة الى ما وراءها ، واقنع نفسه بان يقطف قطعة او قطعتين من زخما وكفى ، ولقد كان في هذا الزخم من الفنى العاطفي وحده ما هو كفييل بان يشغل حياة ادبية كاملة ، وكان وراء هذا الزخم من المعاني القومية والانسانية ما هو كفييل بان يشغل جيلا كاملا من الحيوانات الادبية . ومن اسف ان كتابا مثل بديع حقي قنع بالمطافة وحدها - على نبلها ، وبالنظرة التقليدية - على وجهتها ، وبلاوحة الصدارة على اهميتها ، ورضي ان يترك للجيل الاحداث سنا ما كان يستطيع ان يفعله هو بشيء من التجاوز لمنطق محيطه ومرحلته .

### اطار المأساة عند الجيل المتوسط

في حين يشير قدرى العمر الى سورية والاقطار العربية المجاورة باعتبارها ملاذا للاجئين ، ولا يتحدث الا قليلا عن البعد العربي للقضية الفلسطينية ، فان الدكتور عبد السلام العجيلي ( ١٧ ) ، في القصص القليلة التي كتبها عن تجربة الحرب الفلسطينية التي شارك فيها متطوعا ، يطرق موضوعا شديدا الاهمية وهو التفاعل بين الاطار العربي ولا سيما في سورية وبين مادة النكبة . وفي قصته الجميلة « اينسا كان » يروي لنا جانبا من تجربة المتطوعين العرب السوريين انشاء الحرب الفلسطينية . وتدور القصة حول زعيم قروي محلي يسيطر يستقبل المتطوعين ويقدم لهم كل ما يستطيعه من مشورة وعون ويضع ابناؤه الستة في خدمة المعركة ولكنه ولكنه مؤمن في صميمه :

( ١٦ ) التراب الحزين ، ص ١٢٨ - ١٢٩

( ١٧ ) ولد سنة ١٩١٧

« ان الإنكليز خنازير وأن اليهود كلاب جنباء ما استطاعوا يوما ما أن يدوسوا أرضه ولن يستطيعوه ما دام في عروقه دم وفي صدور أبنائه وأبنائه أبنائه أنفاس تتردد .. » ( ١٨ ) .

ولكن اليهود يتفلبون على العرب ويجد الشيخ الفلسطيني نفسه لاجئا في دمشق ومتسكما ذليلا على ابواب رئيس الأركان في دمشق يطلب مقابلته دون جدوى ، وهو الذي عرفه في بلدته الصخرة وشد من أزره حين كاد زمام الأمور يفلت منه لدى سماعه تذيير الحركة . ويكشف لنا الكاتب عن مسألة قريبة هي أن الشيخ بطل القصة كان ينشد شيئا واحدا من رئيس الأركان ، وهو أن تعاد إلى أبنائه الستة بنادقهم التي صادرها الجنود لكي يمنوهم من التسلل إلى الأراضي التي يحتلها اليهود .

وتتطرق هذه القصة إلى البحث في جوانب كثيرة من الملائمة العربية الفلسطينية - ان صبح التعبير ، وتستخدم اللهجة القرية المباشرة ولذلك يستطيع الانسان أن يستقي منها استنتاجات واضحة : ١ - تؤكد القصد على التثبيت الفلسطيني بالأرض ، والإيمان بضرورة الاعتماد على النفس ، والاستعداد لمجابهة العدو والتضحية بالمفالي والرخيص ، وتشدد بوجه خاص على الفضائل العربية هي القرية الفلسطينية .

٢ - تكشف عن النقص المعنوي الكبير في صفوف المتطوعين العرب في حرب عام ١٩٤٨ . وهي تظهر أن الكثيرين منهم - ولا سيما الزعماء - اتوا لفرض المتاجرة بالقضية وانهم فيما بعد استفلوا أشبع استفلال وانهم انتهوا إلى منع الفلسطينيين من ممارسة حقهم الطبيعي في النضال ، كما ترمز عملية مصادرة بنادق أبناء الشيخ الفلسطيني . ثم ان بعض هؤلاء المتطوعين كانوا عاجزين عن فهم الشعب العربي الفلسطيني بل عن التعاطف معه ، وفهم من كان يتجهج عليه . لقد كان الشيخ يخشى ان يتحدث مع احد سوى مع راوي القصة - الذي هو على الأرجح الدكتور عبد السلام العجيلي نفسه . ويعلق الراوي على حديث الشيخ عن استعداده للدفاع عن قريته :

« لو قال لرئيس جماعة المجاهدين ولاصحابي ما كان يقوله لي لما لقي الا ابتسامه الاستهزاء ، اذا لم تصله من حمنقيهم او بعض سفهانهم شتيمة تلحقه بكل هؤلاء الذين آتيننا نغديهم بارواحنا فلقينا منهم الضيق والمغوق والجود ، ولقينا منهم أحيانا الخنلان والتواطؤ والخيانة » - ص ٤٩ .

٣ - تكشف القصة كذلك عن نقص كبير في الكفاءة القتالية للمتطوعين وفي أسلحتهم وعناصمهم . وقد أظهرت ارتباك رئيسهم بوجه خاص (١٩) حين حزب الأمر وظهرت بوادر الحركة . ويحرص الدكتور العجيلي على اعطاء تفصيلات عن أنواع السلاح المحدود الذي كان يعطى للمتطوعين .

وتتبلور آراء عبد السلام العجيلي بشكل أقوى في قصته الأخرى ( كفن حمود ) وهي من مجموعة ( الحب والنفس ) أيضا . وتحدث هذه القصة عن تجربة ابنة الشعب ( عمي نجمة ) مع قضية فلسطين . لقد أصبحت قضية فلسطين الآن قضية سورية ، إذ استشهد ابنها حمود في فلسطين ، وهي تريد استرجاع عظامه وتشترى قمائشا مميئا من الحج لكي تلف به جسده . وهي تمثل الإيمان الشعبي الفاضل بإمكان تحرير فلسطين في المستقبل ، ومن خلال مشاعر العمه نجمة تطرح القصة الأفكار التالية :

١ - فلسطين طريق مسدود لا بد من ان يفتح يوما ما ، ولكن

( ١٨ ) من مجموعته « الحب والنفس » ، بيروت ، ١٩٥٩

( ١٩ ) وهو غالبا اديب الشيشكلي الذي أصبح فيما بعد رئيسا للأركان ثم رئيسا للجمهورية في دمشق .

اي جيل ذاك الذي سيتولى المهمة الصعبة .

٢ - « فشل القادة ، وفسس الساسة ، وتأمر الزعماء ، ونبتت همم المتحمسين ، ونفض كثير من الناس أيديهم من الأرض المسلوقة . ولكن عمي نجمة ، رمسز الشعب ، لم تفقد إيماننا ولا اصاحت ثقة » - ص ٦٨ .

٣ - كاتت الحكومات المتعاقبة نهمسج السلاح والتبرعات باسم فلسطين ، ولكن كان واضحا ان لا شيء من ذلك يذهب إلى فلسطين .

٤ - يصاني جيل ( الراوي - المؤلف ) معاناة شديدة من عسار الهزيمة ، والمواطنون من أبناء هذا الجيل يخجلون من مجابهة الشعب، اما الانتهازيون فيستغلون القضية الفلسطينية بوقاحة .

٥ - أخيرا يتساءل الراوي - المؤلف بحرقه :

« من ذا الذي سيحمل كفن حمود ؟

جيل آثم يريد ان يشتري خطيئته ويكفر عن عاره ، وجيل يريد ان يلقي نفسه في النار ولا يدري انها تحرق . وجيل يتهايا ليكون كقواا للسهب الذي اعد له . واجيال لا تزال في باطن الفيب .

من ذا الذي يحمل منهم كفن حمود اليه . ؟ تسأول ذاد المنام عن الاعين بسد ان هجمت عين عمي نجمة . » ص ٧٣ .

واذا كان فدري العمر يمثل رأي الجيل الاسن فان عبدالسلام العجيلي يمثل هنا رأي الجيل الوسط الذي وعى النكبة جيدا وبدا حائرا مصدوما ناقما ازاء ما يراه من تخالط واستفلال للقضية ومخيانة لها . ولكنه ظل ضمن حدود الحيرة ولا يوحى بأي المسق جديد ، وان كان يؤكد نوعا من الإيمان القبيي بمجهء الحصل - ربما بعد اجيال .

وتمثل قصتا عبدالسلام العجيلي السابقتان فقرة فنية بالنسبة لقصص فدري العمر ، ولكنهما تبدوان الأقل اتقاننا بكثير من القصص الأخرى التي نشرها العجيلي في تلك المرحلة . وعلى الرغم من الإعجاب الواسع الذي حظيت به هاتان القصتان ابان نشرهما فان المرء يستطيع أن يلمح ان الجرأة النسبية في المعالجة المضمونية والرصيد الكبير لكاتبهما اديا إلى اغفال النقاد المعجيين في ذلك الحين للصدوع الفنية الواضحة في القصتين . وان المرء ليتساءل : هل يكون الموضوع الفلسطيني هنا مسؤولا عن طبيعة البناء القصصي غير المتناسك الذي اختير لهاتين القصتين ؟ يكاد المرء يقول ان تأثير الموضوع الفلسطيني كان غالبا باتجاه التشديد على حرارة المعالجة مقابل التساهل في القالب الشكلي ، على الأقل حتى نهاية الستينات .

### ملامح تجربة الألساسة عند الجيل الجديد

تطور في معالجة الموضوع وفي المستوى الفني :

يستطيع الانسان ان يقول بكل اطمئنان ان معالجة الموضوع الفلسطيني عند الجيل الجديد في مطلع الخمسينات اظهرت تطورا واضحا نحو الافضل سواء فيما يتصل بالمضمون وقوة التحليل او فيما يتصل بالشكل والبنية القصصية . وبالطبع يجب ان يؤخذ هذا التطور بمناه النسبي ، وليس يعني تفصيل انتاج الشبان على الجيل السابق لهم انهم وفوا الموضوع الفلسطيني حقه ، ذلك ان هناك جملة من العوامل السياسية والفنية حالت دون انتاج ادب قصصي رفيع مستوحى من فني الموضوع الفلسطيني وتعدد جوانبه . وبصدد الدوامل السياسية يمكن الإشارة إلى التخلف السياسي الذي كان يسود الافطار العربية المجاورة لفلسطين ابان نكبة فلسطين وخلال السنوات التي تلتها بحيث كانت التحليلات السياسية والثقافية السياسية عامة محصورة في نخبة محدودة جدا . وكانت الطبقات الحاكمة تعمل على استخدام مختلف اساليب التضييل والتشويش والديماغوجية والتلاعب بالمواقف وحجب المعلومات والاصطهاد والارهاب لابعاد الرأي العام عن معرفة طبيعة النكبة ومسبباتها ونتائجها الخطيرة .. وفيما وائل

ولم ينسوا كذلك ابراز المعنى الاساسي للنكبة - وهو المعنى السياسي، وهي هذا المجال كانوا جريئين في فضح خيانات الحكام ومهاجمة التهاون والتخاذل ، وتوجيه اصعب الاتهام نحو الاستعمار ، ولكن هذا الجانب السياسي بالذات لم يتضح في ابعاده الخاصة الا بالتدرج وبعد ان دخلت سورية والاقطار العربية الجسورة لفلسطين في تطورات سياسية عنيفة نتيجة لتاثير نكبة فلسطين بالدرجة الاولى ، وسنرى امثلة من ذلك فيما بعد .

### الجيل الجديد والقيم الايجابية في التجربة :

تكشف قصص الجيل السوري الصاعد في الخمسينات من فترة على ابراز القيم الايجابية من بطولية وانسانية في موقف العربي من الصراع سواء في نضاله او في معاناته ، ويحس المرء في قصص الشباب بلمسات انسانية مؤثرة تكاد تقتصر اليها في كثير من الاحيان قصص الجيل الاقدم الفارقة في العواطف العامة والمثقلة باللفظية والاسلوبية ، فكانوا بنا الجيل الجديد يتعرف على لعبة العواطف الابدية في الحياة وفي الفن على السواء ، واخذ يدرك ان لكل موقف عاطفته الخاصة سواء من حيث نوعها او من حيث زخمها ، وان هذه العواطف - لكي تكون مقبولة ومؤثرة - يجب ان تقاس بميزان حساس لا ان تقدم بدون كيل على الطريقة العاتية . وبالطبع يتحدث المرء هنا عن بوادر اتجاه عام ولا يعني ابدا وجود مثل هذا الفرق العقيق بين كل كاتب من الجيل القديم ونظيره من الجيل الجديد ، وما اكثر الشبان الذين كتبوا عن فلسطين وهم فارغون في العاطفية من قمة راسهم الى اخمص قدمهم .

وقد اختار كتاب الجيل الجديد ، بطبيعة تطلعاتهم النفسية من جهة ، ونتيجة الاحداث السياسية في الخمسينات من جهة اخرى ، تلك الموضوعات الاقرب الى الروح النضالية او الانسانية . وكانت بطولة المقاتلين ، ولا سيما من افراد الجيش العربي السوري وضباطه ، موضوعا محببا لهم ، وقد اتبع لعدد من كتاب القصة ان يعيشوا حياة الجندي المقاتل من خلال خدمتهم الانزامية في الجيش ، كما وفرت لهم مجلة الجندي مناخا فنيا مناسبيا لموضوعات البطولة. ثم ان جو النكبة القائم اخذ يتبدد في اواسط الخمسينات لصالح تطلعات قومية كبرى اسهم فيها الجيل الناشيء الى أقصى حد .

ويمكن اعتبار ( فارس زرزور ) ( ٢٢ ) الممثل الاول لهذه الظاهرة ، سواء من حيث حجم انتاجه المتعلق بالموضوع الفلسطيني او من حيث المستوى الانساني والفني لهذا الانتاج . وفي معظم قصصه تتوافر عناصر فنية اساسية منها وحدة الانطباع والتركيز على لحظة نفسية او موقف نفسي ورصد الحركة النفسية التوعية للاشخاص ولا سيما الجنود منهم، والتأكيد على ارتباط الانسان بالتراب بحيث يكسبون انسلاخه عن ارضه انسلاخا عن وجوده الحقيقي . وعلى الرغم من وجود صدوع فنية ومنطقية في كثير من قصص فارس زرزور فانه قليلا ما يخلق في اعطاء كل قصة نكهتها الانسانية المناسبة واختتامها، عندما يواتي الموضوع ، بومضة ايجابية تشير الى افق جديد يفتح امام الحياة . . وقد ساعد فارسا منيته الطبقي وتجربته الفنية في الجيش على التفاعل مع جوانب مهمة جدا من المسألة ومن الصراع ولبيص ما كتبه من القصص قيمة فنية الى جانب القيمة التاريخية : ولكنه احيانا يفتل الشرط الفني الى درجة لا تصدق . ولعله من المفيد لجلالة جوانب الموضوع ان نقف عند بعض قصصه :

(٢٢) نشر فارس زرزور مجموعتين من القصص هما : « حتى القفزة الاخيرة » ، ووزارة الثقافة ، دمشق ، ايار ١٩٦١ ، و « ٢٢ راكبا ونصف » ، دمشق ، ١٩٦٦ ، وذلك بالاضافة الى عدد من الروايات ، وقد ولد فارس زرزور سنة ١٩٢٨ لاسرة فقيرة في حي الميدان الشمالي بدمشق ، وبدا حياته مطما ثم ضابطا في الجيش واحترف الكتابة بعد ذلك .

الخمسينات كان يبدو ان الكتاب الشباب يهسون بكل ذلك ولكنه الاحساس العام المنعرج الى التحليل القومي ، وبالمرجح تطور هذا الاحساس الى وعي ومحاولة للتمعق ورغبة في الربط والتطيل . وقد قطع كتاب الفضة الشباب شوطا في هذا المجال ولكنهم لم يستطيعوا تجاوز النعيجات السياسية للمرحلة ، بحيث لا نستطيع ان نسب اليهم من عناصر الوعي السياسي ما ينفردون به عن غيرهم من ادبيات الفنون الاخرى او من كتاب الادبيات السياسية .

ولم يستطع المستوى الفني للقصص ، بما يجب ان يوفره عادة من الجاذبية وقوة التأثير ان يعوض عن النقص الذي كانت تعاني منه القصص في العمق والرؤية ، وظهر عجز واضح عن استثمار الامكانيات الطيعة التي يزخر بها الفن القصصي من اجل ارتياد الجوانب القومية والانسانية الخاصة في الموضوع الفلسطيني وتحويلها من مادة خام الى اشكال فنية مصقولة وقائمة بذاتها . ويرجع ذلك بالدرجة الاولى الى ان فن القصة في الخمسينات كان بعد فنيا لم يستكمل اسباب النضج ولم تسبقه من التجربة الموروثة سوى مرحلة قصيرة متقطعة من المحاولة والخطا في المقدمين اللذين سبقا الخمسينات على وجه التحديد . وبالطبع لا يطلب المرء المستحيل من كتاب ايسة فترة من الفترات ، فالانتاج الفني ظاهرة اجتماعية مرهونة بطروفها العامة ، ولكن هذا الموقف الاعتدالي لا يجب ان يوصلنا الى الاعتقاد بانه ( ليس بالامكان ابداع مما كان ) . واقل ما يمكن ان يؤخذ على قصص المرحلة عامة انها اتكأت على سمو الموضوع الطروح واطمأنت له ومالت في معظمها الى التساهل في القيم الفنية ، وان عشرات القصص الوطنية العابرة التي نشرت في مجلات مثل ( الجندي ) و ( الشرطة والامن العام ) و ( الدنيا ) في الخمسينات تقف شاهدة على هذا الحكم . بل ان المرء يكاد ان يذهب الى ابعد من ذلك ليستنتج - ولو على حذر - ان عددا من الكتاب الذين كانوا معروفين بحرصهم النسبي على توفير مستوى فني لائق لانتاجهم لم يظهروا مثل هذا الحرص فيما نشره من قصص وطنية وفلسطينية في المجلات المذكورة ومثيلاتها ، وبقينا كان هؤلاء الكتاب يعرفون انهم يلون حاجات ملحة، ولذلك لم تظهر اكثر هذه القصص في المجموعات التي نشرها فيما بعد ، ومن بين هؤلاء - على سبيل المثال - كتاب مثل سعيد حورياتي وشوقي بنداوي ومحمد حيدر .

على ان الاشارة الى هذا الواقع يجب ان لا تحجب عن الاعين اهمية الاسهام الذي قدمه كتاب القصة الشباب في استثمار بعض الجوانب القومية - بالدرجة الاولى ، والانسانية - بالدرجة الثانية ، من الموضوع الفلسطيني . فقد تحدثوا عن النضال العربي عاموا الفلسطيني خاصة وصوروا جوانب مختلفة من عملية القتال وركزوا على قيم الصمود والنضحية والبسالة (٢٠) ، كما صوروا جوانب من مأساة اللاجئين الفلسطينيين وعذابهم وشتتهم واكدوا على صوة هؤلاء للعودة وحينهم الى الارض المحتلة وتعينهم شتى الفرص للوصول اليها (٢١) ،

(٢٠) - انظر مثلا القصص التالية التي نشرت بين سنتي ١٩٥٢ -

١٩٥٢ في الجندي :

- « مذكرات ام » لعنان خماس .
- « بطل لا ينسى » لسليمان جابر .
- « هجرت اليك ربي لترضى » مندر سراج .
- « العريف » لمحمد حيدر .
- « القافلة التي مرت » ، لشوقي بنداوي .
- « قبلة النصر » ، زياهي قادري .
- « سبيل الى الموت » سعيد هاتر .
- « المطر » ، محمد كامل صالح .
- « رسالة من الميدان » ، فارس زرزور .

(٢١) - وان كان هذا الموضوع ظل ايرأ عند كتاب الجيل الاقدم ، ويعود للدكتور بديع حتى فضل كبير في معالجة هذا الموضوع .

١ - في قصته « حفنة من تراب » (٢٢) نجد التأكيد على وجود البذور الوظيفية عند الجميع. ان بطل القصة محمد العجاجة ، مقرب سيق له ان هاجر من قرينته في فلسطين بعد ان توفي والده وترك له عمًا ثريًا من أمدين ، وقيم محمد العجاجة عشر سنوات في البرازيل ثم يتاح له ان يقصد فلسطين زائرًا مع فوج من المغربيين ، وفي نيته ان يعطح أمه ويعود بها الى البرازيل . ويصل قرينته فيجد ابناعها مستعدين لقتال الاعداء الصهاينة وقد اصبحت زينتهم الوحيدة البنادق على اكتافهم وامشاط الرصاص على صدورهم . ويسأل عن امه فيجد انها توثيت قبل ثلاثة اشهر من وصوله ، ويؤزر قبرها فيجده الى جانب قبر ابيه . ويتحرك في اعماقه شعور عميق ، ويكتشف انه يملك في ارض الوطن شيئًا ثمينًا لا يمكن ان تاتي بمثله كل امواله فسي المهجر . ويقضي ليلته عند قبر والديه يحرسهما كما يحرس ابناء القرية اشياهم الثمينة ، وهم يتوقعون هجوم اليهود في اية لحظة . وفي مساء اليوم التالي يتلقى مكتب المقرب محمد العجاجة في البرازيل البرقية التالية :

بيعوا كل شيء وارسلوا المال الى العنوان التالي : تل الزبوان ، يافا - فلسطين .

ويلاحظ في هذه القصة ان الكاتب يعزف على وترين متناظرين هما الحس الانساني والحس الوظيفي عند الناس ، ويحاول ان يتوصل الى قلب محمد العجاجة من المنسحب الى المنتمي وطنيا وانسانيا . ويكاد يلجأ الى القسر في عملية التحويل هذه . وقد كانت مهمته تكون اسهل لو تم يكن ندى محمد العجاجة من الارتباطات المالية في المهجر ما هو كليل بان يشل الارتباطات الانسانية والوطنية - كما علمتنا التجربة . وتنضح القصة من اولها الى آخرها بالاجابية وبالروح التفاؤلية ، ويتقبلها الانسان على الرغم من كل ما فيها من انثفات ، وهي لا تغفر الى التشويق .

٢ - وفي « شجرة البطم » يرثد المؤلف زاوية انسانية خاصة جدا من زوايا الحياة النضالية . يقف الضابط ، بطل القصة ، امام شجرة البطم الوحيدة في « تل الزيزيات » (٢٤) وتتثال عليه الذكريات . لقد كان ابوه الشهيد جنديا في كتيبته وكان على هذا الضابط ان يقود المعركة وأن يوجه جنوده للاشتباك مع العدو . ويؤتى بابيه جريحا على نقالة ويلقي ابوه ما يشبه الخطاب الوظيفي امام شجرة البطم قبل ان يسلم الروح :

« انظر الى هذا التراب ، كنت اسكن فيه فسمعته يتاكي بصمت : انهي ظاهري . اسقني قليلا من دمك لانبت لك شجرة الحرية ... »  
وضم قبضته الى صدره ...

وتنتهي القصة على النحو التالي :  
« لا تزال شجرة البطم منتصبة صامتا ، وتل العزيزات لم يفقد سوى قبضة من تراب اظبق عليها والذي باصابعه وظل يضمها الى صدره الدامي وروحه تصعد به الى السماء » (٢٥) .

وعلى الرغم من كل ما يمكن ان يوجه الى هذه القصة من انتقادات فنية ولا سيما من ناحية اعتمادها على الخطابية ، فانها تظل عملا فنيا مؤثرا يستطيع ان يشد الانسان الى جوهه وان يستدر الدمع من عينيه . وان حرارة الصديق هنا تتجاوز كل المواصفات الفنية .

٣ - وفي قصة ( الدخان ) يرسم فارس جوا عنديا لحياة اللاجيء . انه هنا اللاجيء الذي تتأزر عليه عوامل الجوع والشكل والنذل والتشرد والياس . ويبدو لنا اللاجيء وحيدا في خيمة لا فرق بينها وبين القبر

(٢٣) نشرها في الاداب ، ع٧ ، سنة ١٩٥٤ ثم ظهرت في مجموعته ( حتى القطرة الاخيرة ) .

( ٢٤ ) تل عسكري مهم على الحدود السورية الفلسطينية دارت حوله معارك طاحنة استبسل فيها الجيش العربي السوري وقدم ضحايا كثيرة . ( ٢٥ ) حتى القطرة الاخيرة ، ص ٥٦ . وقد نشرت هذه القصة للمرة الاولى في الجندي ، ع ١٢ ، ١٥ آب سنة ١٩٥٢ .

وذلك بعد ان ماتت امراته . وتذهب ابنته الصغيرة لجني الحطب وينهك طول انوقت باشغال النار ولكنه يفشل في تبديد سحب الدخان الصاعدة من الحطب ولا يرى سوى الدخان .  
وينجح فارس هنا في وضع اللاجيء في جو قاس مرير ومثير ، وينقلنا بذلك الى اوج حدة المأساة . ويزيد من تفديرنا للفتنة انها صورة وصفية كاملة لا تعتمد على انحاذته ومع ذلك توفر عنصر التشويق . وفي القصة وحدة انطباع وتركيز وتوجيه ، ويلفت النظر فيها التعليل التالي :

« وانه لما يدعو اني البكاء والضحك معا ان هذه الجمادات التيمسية الزرية تحس وتشعر بانها احسن حالا واجل قدرا من هذه الارواح الانسانية التي تمصفها في احسانها » (٢٦) .

وعلى الرغم من عدم استواء التعبير في هذا التعليل - وهي مشكلة عانى منها فارس في بدء ممارسته للكتابة - فان القاري لا يخفق في تلمس الفكرة البعيدة التي رمى اليها الكاتب . ان حالة اللاجيء لم تتفن الى درجة الصفر فحسب بل تتجاوزها الى ما هو ادنى من ذلك . وليست المسألة هنا مسألة تشبيه اللاجيء بالحيوان او بالجماد . انها ابعد من ذلك . فالانسان هنا يسف الى ما دون الجماد ، ويشير حركة ما في الجمادات لانها تحس انه ليس سوى قطعة جامدة امام مصيره الدخاني ، ومع ذلك لا احد يحرك ساكنا . ويخيل الى المرء ان هذه القصة تكاد تنجح في لعبة قلب الحقيقة مجازا والمجاز حقيقة . وهذا هو سرها .

لقد اغنى فارس زردور الموضوع الفلسطيني بمثل هذه الومضات الموجهة الى زوايا مظلمة من النكبة ، ورفع بها من مستوى قصة النكبة . ولكنه مقابل ذلك تساهل كثيرا في عدد من قصصه ، وقدم احيانا مشروعات قصص فيها مادة خام غير مستساعة بحد ذاتها حينا وغير مصقولة حينا آخر . وعذره بالطبع معروف - وان لم يكن مقبولا عند الكثيرين ، وهو انه سارع في بعض الحالات الى التجاوب مع المتطلبات الملحة قبل المتطلبات الفنية .

الجيل الجديد وادانة التخاذل الرسمي :

ويمثل لنا هاني الراهب (٢٧) في قصته القصيرة « مقعدان في صالة التمثيل » (٢٨) وجها آخر من جوه ادب النكبة . ففي هذه القصة ذات الطابع الرمزي يهجو المؤلف الموقف العربي الرسمي من قضية فلسطين في تلك المرحلة . ويعتبر القضية الفلسطينية على المستوى الرسمي وجودا فترغا من المضمون ، اما ابناء القضية أنفسهم فمهمدون ومنفيون ومحرومون من المشاركة فيها . ان السلطات الرسمية تحتفظ لنفسها بحق معالجة القضية بالاسلوب الذي يروقها وتحرم ابناء الشعب فرصة الاتصال بقضيتهم والدفاع عن حقوقهم واعراضهم . وتدور هذه القصة في رحاب جامعة دمشق ( مقفل الوظيفية والنضال في تلك الفترة ) . ويقدم لنا الراوي وزميله عثمان وهما يحاولان الحصول على بطاقتين في حفلة سمع تقيمها الجامعة ، ويخفقان فيحاولان الدخول دون بطاقات فينقض عليهما اعضاء اللجنة التنظيمية ويخرجونهما بالقوة بعد عراقك عنيف ، ويقنع البطلان أخيرا بترك المسرح لاصحابه .

وتتحرك القصة بوساطة رموز شبه واضحة ، فوصال اخت عثمان وخطيبة الراوي تمثل دور فلسطين - البراءة والنضحية . وخشبة المسرح تعني على الاغلب مسرح السياسة العربية الرسمية ، وربما كانت تعني بالضبط الوسط الرسمي الحاكم في سورية في مطلع الستينات ، وتذكر اوصاف احد ابطال القصة ( الدكتور نظام الاصلع ) برئيس الجمهورية الدكتور ناظم القدسي وقتذاك . ويمثل الجمهور الشعب العربي المصلوب قبالة خشبة السياسة الرسمية الذي يحظر عليه

( ٢٦ ) « حتى القطرة الاخيرة » ، ص ٦٩ .

( ٢٧ ) ولد في اللاذقية سنة ١٩٢٩ .

( ٢٨ ) الاداب ، تموز ١٩٦٢ .



الاستماع إلى أي حديث سوى تهريج المثليين ، والجمهور هنا سلمي غير واع وتطلعي عليه أخدمه ، وتمثل ( اللجنة التنظيمية ) الفئات المشتركة بانحسار في سورية وقتذاك ، وتنصف هذه اللجنة بالشراسة وتتضامن فيما بينها ضد الجمهور .  
وتعكس هذه القصة رأي شبيبة الجامعة التقدمية في ذلك الحين وتتوافر لها من حرارة الصدق وإيحاء الحوار ورشاقته وجمال العرض ما يبيح لنا اعتبارها من أجمل القصص القصيرة الفنية التي كتبت حول قضية فلسطين في الستينات .

### اتجاه الموضوع الفلسطيني نحو النضج في الرواية

ومن زاوية الموضوع الفلسطيني لفت النظر ظاهرة غريبة في الرواية (٢٩) السورية حتى نهاية عام ١٩٦٧ على الأقل ، وهي ظاهرة عدم تخصص أية رواية بالموضوع الفلسطيني بل عدم تركيز أية رواية على هذا الموضوع أو ما ينشعب عنه من جوانب سياسية أو اجتماعية أو إنسانية . ولعل لذلك أسبابا موضوعية منها أن قضية فلسطين كانت آنذاك تثير من الحرارة والانفعال والتأثر والحمية ما لا يمكن أن يصلح مادة للرواية طويلة النفس . ثم إن فن الرواية كان في تلك الفترة ناشئا هش العروق وأعجز من أن يصمد لمتطلبات الموضوع الفلسطيني . ولا شك أن هناك أسبابا أخرى أكثر خصوصية ، منها مثلا أن الموضوع الفلسطيني حرم في تلك الفترة من فرصة تركيز فئتين مهمتين من الكتاب عليه :

الأولى : فئة الكتاب ذوي الاتجاه الماركسي ممن كانت نظرتهم الأيديولوجية تجاه القضية الفلسطينية تختلف عن النظرة القومية العامة لها وتثير نفور الجمهور التمحس وسخطه ، مما صرفهم بالطبع عن التركيز على معالجة هذا الموضوع في الأصل موضوع خصب لذوي الاتجاه الاتراخي في الأدب . وبوجه عام يعتبر نصيب الموضوع الفلسطيني في قصصهم ضئيلا كما وكيفما حتى سنة ١٩٦٧ .

الثانية : فئة كتاب النزعة الحدائية ( مودرنزم ) الذين انصرفوا أصلا إلى تقليد الموضوعات الغربية بتأثير شعورهم بالخيبة المرة بسبب الهزيمة القومية وبسبب عوامل أخرى اجتماعية . إلا أن شدة الصدمة لم تمنح لهم أن يصرخوا الصلة بين شعور الخيبة والضياح الذي كانوا يعانون منه وبين السبب الأساسي لهذا الشعور وهو النكبة القومية الكبرى عام ١٩٤٨ . وبدت لهم القضية الفلسطينية بعيدة عما ظنوا أنه القلق المعصري الذي يعانون منه .

وقد أفردت بالذكر هاتين الفئتين لأن فن الرواية العربية قام بالفعل على أكتاف كتابهما . على أن حكمنا السابق يبقى صحيحا وهو أنه يندر أن يخلو إنتاج أي كاتب سوري في فترة ما بعد النكبة من إشارة إلى الموضوع الفلسطيني بشكل أو بآخر .

ولعل أبرز كتاب هذه المرحلة في مجال الرواية الاستاذ مطاع صفدي (٣٠) في رواية «جيل القدر» (٣١) الذي يجصل الشعور بالنكبة القومية في فلسطين محركا أساسيا من الحركات التي تدفع أبطاله باتجاه التفاني في النضال القومي . ويبدو واضحا في هذه الرواية القومية الشعور الشعبي العارم ضد الحكام من الرعيال الأول الذين شاركوا في مؤامرة سقوط فلسطين والذين تؤكد الرواية أنهم « كانوا يشتركون الأسلحة ويرسلونها إلى اليهود ... من مال العرب » . وفي هذه الرواية أيضا إصرار على الطابع القومي للنكبة ، وهو ما يميز الفهم السوري للقضية الفلسطينية طوال المرحلة التي تشملها هذه الدراسة . وتعكس رواية « جيل القدر » كذلك مدى عمق الشعور بالآثم الذي كان يحفر في صدر المثقفين والجهامير من جراء الاقتناع العام بتقصير الجميع في واجبه تجاه القضية وفي أفضائهم عن خيانات الحكام واتمهم . ولكن الأهم في ذلك أن الرواية تعتبر النكبة الفلسطينية عاملا من

( ٢٩ ) استعمل مصطلح القصة للمعنى العام Fiction ، وذلك مقابل الدلالة النوعية لمصطلحي الرواية Novel والقصة القصيرة Short Story .

( ٣٠ ) ولد في دمشق سنة ١٩٢٩ .

( ٣١ ) بيروت ، ١٩٦٠ .

عوامل تفجر الوعي القومي لدى الفرد العربي وفاتحة مرحلة جديدة من الثورة الأصلية ، يقول نبيل بطل الرواية : ( ... وهذا هو ما فعلته الكارثة بالامة العربية ، لقد انطقتنا من سدرتها ، هكذا يقول السطحيون ، وأما الحقيقة فإن ضياح فلسطين الموفت هو انذار لامة بان تمتلك ذاتيتها حقا لا قشورها ، بان تصلي فوق واقفها المريض بان تمزق فئاع الوهم عن بصيرتها ، بان تحفر في كهفها لتصل الى مصيرها الحقيقي ... لقد كانت فلسطين بدء البعث الحقيقي لامتنا ، أرجعتها الى خاصيتها الأولى ، تحدث أصالتها ) .

لكن نبيل لا يكفي بهذا التفسير الثوري الوجودي ذي الطابع العام بل يستمر في التعليل على قضية فلسطين من خلال المصطلحات الوجودية الأكثر تخصصا :

١ - فلسطين كانت دعوة لحرية إحق ، لوجود إحق ، لبعث أشمل وأعمق .

٢ - تحدي فلسطين سيحقق عصر المعجزة بالنسبة للإنسانية - إذا كانت ارادة الامة موجودة .

« عوضا عن أن ينهار العالم يمكن أن يتابع حياته الأصلية بأمة أصيلة تطعمه بحريتها الغازية المحررة الجديدة » .

٣ - وعلى ذلك تكون الامة العربية بمثابة فرد يستعيد وجوده وباستعادة وجوده تفتتح قواه .

وفي ( جيل القدر ) شخصية فلسطينية مهمة من خلال منطق الرواية ، ويمكن أن تكشف لنا جانبا من التصورات السائدة في مرحلة الخمسينات حول الشخصية الفلسطينية . يقدم لنا هاني في الرواية بوصفه شابا فلسطينيا لاجئا في دمشق ، يتمتع بثقافة إنكليزية واضحة ، وهو شغلة من الحيوية ، معاني في الظاهر وديوي وله علاقات اجتماعية متشعبة ، وهو لا يستقر على حال ، كأنما يشكو من قلق داخلي أو مطاردة ميتافيزيقية ، وهو دائم الترحال بين سورية وأميركا ، وكأنه يعيد مأساة اليهودي النائه ، وهو يشعر بالصغار أزاء العالم وينطوي على احساس حاد بالمرارة .

ويبدو الكاتب حائرا بشأن بطله الفلسطيني ، ولعله يكس هنا حيرته بين الشعور العام تجاه الفلسطينيين الذي ساد في فترة معينة في الخمسينات بتأثير عوامل نفسية عامة رافدها الدعوة الأجنبية وبين منطلقاته القومية النظرية التي لم تكن لتسمح له بمجازاة بعض الاتجاهات التي كانت تهمس بادانة الفلسطينيين بحجة تخليهم عن بلدهم وبيعهم أراضيهم والتي كان بعضها يذهب إلى زرع بذور الشك بهم لدرجة اتهامهم بالجاسوسية . لقد كان مطاع صفدي بوجه عام متعاطفا مع شخصياته في ( جيل القدر ) وكان ترفع البطل ( نبيل ) عنهم مصحوبا بنوع من الرعاية الفوقية . ولكن هذا التعاطف لم يستطع أن يبرف بجناحيه على ( هاني ) الفلسطيني . إن مجرد اختيار هذا النمط الفلسطيني يكشف عن تأثر عام بمنطق الرحلة . إن هاني مدان طوال الرواية ، وهو يوصف بالسافل التشرذ وتكشف الشخصيات الأخرى عن استعناد لاضطهاده لا يقره المؤلف ولكنه لا يستطيع أن يبتزه . بل على العكس من ذلك يؤكد باستمرار على الجانب الإنهزامي من شخصية ( هاني ) ، وفلسفته الخاصة ( الفلسطينية ) ، والمؤلف يرفض هذه الفلسفة السلبية ولكنه يبدو غير ميال إلى انكار تعميمها على الجميع أو على التفتيش عن موقف اعتناري لوجودها . ويتكرم المؤلف على الشخصية بأن يسمح لها بالشعور بالمأساة بشكل حاد وعممر وممزق أحيانا ، ولكن هذا الشعور لا يتخفف عن موقف إيجابي . وهنا تبدو حيرة المؤلف واضحة بين ميله إلى ادانة الشخصية وواجهه في تبرئتها . ولذلك نراه يختار ( هاني ) لدور غريب يمثل هذه الحيرة . فهاني هو الذي يسلم البطل نبيل إلى مباحث الطاغية ، وتثبت عليه التهمة وتثور نائرة ( الجماعة ) ولكن المؤلف يعود بعد ذلك فيبرئه ويجعله عضوا في المنظمة وفي الشرطة السرية في وقت واحد ، وينسب إليه القيام بدور الإيقاع بنبييل رغبة في إنقاذه في نهاية المطاف . لماذا اختير الفلسطيني لهذا الدور الزوج ؟ هذا هو السؤال الذي يتبادر للمرء عند قراءة

الرواية . ويشعر القارئ بعد ذلك أن تبرة ( هاني ) لم تكن صريحة بل جاءت بشكل موارب .

ثم إن المؤلف يسلب هاني الحق في أن يكون محبوباً مسن قبل زميلاته . إن شخصية هاني - كما تبدو في الرواية - كانت خليفة بان تجعله جذاباً لقرّاء معينين من الفتيات الجوازيات في الجامعة ، وبالفعل تقع ليلي في حبه ، وهو موقف طبيعي ، ولكن نبيلاً ينكر ذلك عليها ، ويفسر حبها لهاني بأنه ناتج عن الشعور بالذنب تجاهه وتجاه الفلسطينيين بسبب معرفتها بخيانة والدها وتأميره وهو الذي كان من المسؤولين البارزين أثناء النكبة ( ص ٩٢ - ٩٤ ) . فكان ( هاني ) لا يجوز أن يحب إلا نسبب خارج عن ذاته . وبالطبع كان الإنسان خيفاً أن يعتمد عن مثل هذه الاستنتاجات لو أن هناك شخصيات فلسطينية أخرى تمثل مواقف مختلفة في الرواية ، ولكن اكتفاء المؤلف بشخصية هاني وحده تبيح لنا التوصل إلى الاستنتاجات السابقة .

على أن الملاحظات السابقة يجب أن لا تنسينا أنه من بين جميع الأصوات القصصية السورية التي هفت للقضية الفلسطينية وتجاوبت معها حتى عام ١٩٦٧ كان صوت مطاع صفدي أبعدنا غورا واصدقها قومية وأعمقها وعياً ، في حين كانت الأصوات الأخرى أكثر استجابة لدواعي العاطفة والتأثر أو في أحسن الحالات لدواعي الانطباعات العجلة .

### خلاصة القول

والخلاصة أن الموضوع الفلسطيني في القصة السورية بين النكبتين ( ١٩٤٨ - ١٩٦٧ ) لم يأت على تلك الدرجة من القوة التي يتوقعها الإنسان في أدب بلد عربي ظل أبناؤه دائماً يعتبرون القضية الفلسطينية قضيتهم الأولى والركزية ، ولعل السبب الرئيسي في ذلك هو حداثة فن القصة الناشئة واقتدار الكتاب إلى تقليد أدبي نوي في هذا الفن يمكن أن يقيسوا عليه ويستفيدوا من تجربته . على أن هذه الحقيقة يجب أن لا تمنع المرء من انتوابعه بالتطور الباهر الذي قطعتة القصة السورية خلال حوالي عشرين عاماً في معالجة هذا الموضوع الجليل . ومن ناحية المضمون يشمل الموضوع الفلسطيني في القصة السورية النواحي الرئيسية التالية :

١ - وصف الفلسطينيين أنفسهم ، ولا سيما بعض مظاهر حياتهم قبيل النكبة ومعاناتهم أثناء شهور الصدام الدامي ، وخروجهم من البلاد وما ترتب على ذلك من تحولهم إلى لاجئين في الخيام ، وكفاحهم في سبيل العيش والبقاء ، وحنينهم إلى فلسطين وهطلمهم بمفهوم العودة ، وبعض الجوانب الأخرى المتفرعة عن هذه الأمور الأساسية .

ب - معالجة الناحية السياسية من القضية ، وإبراز ما في هذه المعالجة الهجوم على الحكام العرب الذين باعوا فلسطين ، ويكاد يكون هذا الهجوم ( اللزماً ) المتكررة في جميع القصص ، وهناك بالمقابل تأكيد على تعقل الفلسطينيين بوطنهم وحقهم فيه وتضحياتهم وبطولتهم في سببه . وهناك ما يشبه الإجماع على أن الفلسطينيين كانوا أولى بالدفاع عن وطنهم وبقاؤه لو أنهم أعطوا الإمكانيات والإمدادات اللازمة ولو أن الحكام العرب لم يفرروا بهم ويخدعهم .

ج - التنديد بالعدو الصهيوني وتصوير وحشيته وغبه بالمدنيين العزل وحققه على العرب مع تأكيد على أن الاستمرار هو الذي صنع من ( اليهود ) شيئاً مذكوراً وهو الذي أعد خيوط النكبة وحاكها ولا سيما الاستعمار البريطاني ، وإن كان هذا التأكيد غير مصحوب بتحليل وربط كافيين .

د - الربط بين القضية الفلسطينية والثورة العربية . ويبدو بوجه خاص في إنتاج الجيل الجديد حيث نجد تركيزاً على هذا الربط من خلال اعتبارين رئيسيين : الأول أن النكبة الفلسطينية كانت عاملاً رئيسياً من عوامل تفجر الثورة العربية ، والثاني : أن تحرير فلسطين يؤلف جوهر القضية العربية . وتبدو هذه الناحية بارزة في أدب الكتاب القوميين الشباب .

ه - وصف الجانب العربي من الصراع : وهنا نجد تأكيداً خاصاً على بسالة المقاتلين العرب السوريين وتوجههم إلى المعركة انطلاقاً من إيمان أكيد بعدالة القضية العربية وبالنصر والتضحية - وقد رافق ذلك وصف لجوانب إنسانية غنية في مواقف القتال .

أما الشخصية الفلسطينية فهي بوجه عام شخصية معانية مناضلة ومحبية ولكنها أقل حظوة عند الكتاب من أنقصية نفسها حتى لبيدواحياناً أن الحماسة النظرية الدافقة للقضية لا تتناسب تماماً مع الموقف العملي من أبنائها الذين يحسمونها ، إذ يبدو هذا الموقف أقرب إلى الغتور أحياناً - كما هو متوقع ضمناً - لأن الصلة اليومية غير الموقف النظري من جهة ، ولأن الملابس العملية لتلجوه الفلسطيني لم تنح لصوره الفلسطيني المناضل أو النكوب أن تأخذ بعداً تجريدياً ناصعاً . وعلى العموم يمكن النظر إلى الشخصية الفلسطينية في القصة السورية من خلال التصنيف التالي :

١ - الرجال الشجعان الأشداء الذين تكمن مسانهم الحقيقية في أنه حيل بينهم وبين أداء واجب الدفاع عن الوطن خلال أحداث عام ١٩٤٨ وبعدها أيضاً ، وذلك بسبب تدخل الحكام العرب آنذاك .

ب - الضعاف من أطفال وشيوخ ونساء ممن وقعوأصحية اختياريين أحلامهم ، فإما أن يمكتوا في بيوتهم وينتظروا فدم العدو الذي لم يكن يتورع عن ارتكاب المذابح الجماعية بدم بارد أو على الأقل كان يسوهم سوء العذاب ويذنبهم ويضطهدهم . وإما إذ يهاجروا من بلادهم ويتحولوا إلى مشردين مبغضين في الأقطار العربية المجاورة . وإذ يصبحون كذلك فانهم - على نحو ما تصورهم القصص - ينهمكون في كفاح مرير لتحقيق هدفين عاجلين رئيسيين : أولهما كسب لقمة العيش ، وثانيهما محاولة إعادة بناء الأسر التي تمزقت وتفرقت أبناؤها أيدي سباً .

### \*\*\*

وعلى الرغم من نبل الدوافع التي أملت معالجة القضية الفلسطينية في القصة السورية ، فإن جمهرة القصص - ولا سيما في أوائل الخمسينات - تكشف عن سطحية في فهم معنى النكبة ومسبباتها مع ضيق في النظرة السياسية وغياب كامل للتحليل . وهناك أخفاق ذريع في تجاوز التجربة القومية للنكبة إلى افق إنساني أرحب وهو الامتياز الذي كان يمكن أن تفرّد القصة نفسها به عن الفكر السياسي المتوتر الذي كان يسود المرحلة . ومن الناحية الفنية تبدو التجربة مفتقرة إلى التمثل والموضوعية ، وهي تعرض من خلال الوعظ والانفعال والإسراف في رقة المشاعر في أغلب الحالات .

ويرجع ذلك في جانب منه إلى أخفاق الكتاب في سلخ أنفسهم عن الأحداث اليومية للقضية وبالتالي بلورة موقف شامل منها ، وكذلك إلى أن المسألة ظلت لفترة طويلة تدخل في تطورات صارخة تتولد عنها باستمرار مظاهر وأوضاع مفاجئة ، وباستثناء حالات معدودة جرت الإشارة إلى معظمها في هذا البحث . ظلت القصة القصيرة السورية حتى سنة ١٩٦٧ تغلّى من حليب الانداء العاطفية للموضوع الفلسطيني . أما الرواية فقد ظهر فيها الموضوع الفلسطيني بشكل جانبي ولم يفلح أي عمل روائي بالتمركز حول الموضوع الفلسطيني .

وأخيراً لا بد أن يلفت نظر الدارس ذلك الفارق الكبير في المقدرة على التحليل وفي طريقة المعالجة بين الجيل الأقدم الذي لم يستطع تجاوز العاطفية والشكلية وبين الجيل القومي الناشئ الذي عمل على الربط بين القضية الفلسطينية والثورة العربية وكان جريئاً جداً في تحديد مسؤولية النكبة وفي التنديدة بالحكام .

وفي الموقفين كليهما - على أي حال - لم يبد أن المضمون الفلسطيني كان من القوة بحيث استطاع أن يطور نمطاً تقنياً خاصاً به أو أن يفرض سمات معينة على التقنيات المعروفة في المرحلة ، وإن كان هناك ميل واضح في القصص الفلسطينية إلى الخطابة والتقريرية والتلذذ بالوصف المباشر للمعاناة والألم وربما - نتيجة لذلك - إلى التقليل من شأن العناية بالبنية القصصية وبعض المقترضات - الشكلية .